

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الدرس : 2 - سورة الإنسان - تفسير الآيتان 23 - 24

16-03-1998

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أيها الإخوة الكرام، الآيات الثالثة والعشرون والتي بعدها من سورة الإنسان، وهي قوله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا(23)﴾

[سورة الإنسان]

قد يُعَبَّر عن ذات الله عز وجل في القرآن الكريم بكلمة أنا قال تعالى:

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي(14)﴾

[سورة طه]

وقد يُعَبَّر عن لفظ الجلالة في القرآن الكريم بالضَّمير نحن، قال تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا(23)﴾

[سورة الإنسان]

فهل هناك فرق بين التَّعبيرين ؟ متى يقول الله عن ذاته العليَّة:

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي(14)﴾

[سورة طه]

﴿ومتى يقول الله عز وجل عن ذاته العليَّة: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا(23)﴾

[سورة الإنسان]

قال علماء التفسير، إذا كان المراد ذات الله عز وجل جاء التَّعبير إِنِّي أَنَا اللَّهُ أما إذا كان المقود أفعاله وأسماؤه فكلُّ أفعاله تُدخَل فيها كلُّ أسمائه، ففَعَلُهُ رَحْمَةً وفَعَلُهُ حِكْمَةً وَعَدَلٌ وَقُوَّةٌ وَهَيْمَنَةٌ فإذا عَبَّر عن أفعاله يقول: إِنَّا نحن، فهذا القرآن رحمة وعدل كما قال العلماء ؛ الشريعة عدلٌ كُلُّهَا، وَرَحْمَةٌ وَمَصْلَحَةٌ كُلُّهَا، لا يليق بشريعة الله تعالى إلا أن تكون كذلك فأَيُّه قَضِيَّةٌ حَرَجَتْ من العَدَلِ إلى الجور أو من

الرَّحْمَةَ إِلَى خِلَافِهَا أَوْ مِنَ الْمَصْلُحَةِ إِلَى الْمَفْسَدَةِ فَلَيْسَتْ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَلَوْ أُدْخِلْتَ عَلَيْهَا بِالْفِ تَأْوِيلَ وَتَأْوِيلَ، هَلْ تُصَدَّقُ أَنْ يَذْهَبَ مَلِيُونَ حَاجَ أَوْ أَكْثَرَ إِلَى الدِّيَارِ الْمُقَدَّسَةِ وَأَنْ يَذْبَحُوا الْخُرْفَانَ وَيُلْقُونَهَا فِي الْعَرَاءِ فَيُصْبِحُ الْجَوُّ نَتْنًا لِعِدَّةِ أَشْهُرٍ ! هَلْ هَذِهِ هِيَ الشَّرِيعَةُ ؟! لا، الْآنَ تُدْبِحُ فِي مَسَالِخٍ وَتُبْرِّدُ وَتُرْسَلُ إِلَى الْفُقَرَاءِ، هَذِهِ هِيَ الشَّرِيعَةُ، أَمَا أَنْ نَذْبِحَ مَلِيُونَ خُرُوفٍ وَتَذْهَبَ هِبَاءً وَالنَّاسُ يَمُوتُونَ بِالْجُوعِ ! لَيْسَتْ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ، فَلَا بَدَّ أَنْ تَكُونَ الشَّرِيعَةُ رَحْمَةً وَحِكْمَةً وَمَصْلُحَةً، فَإِذَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّا نَحْنُ، فَاسْمَاءُ اللَّهِ تَعَالَى كُلُّهَا حُسْنَى وَفُضْلَى وَأَفْعَالُهُ كُلُّهَا حَكِيمَةٌ فَإِذَا كَانَ التَّعْبِيرُ عَنْ أَعْمَالِهِ يَأْتِي ضَمِيرَ الْجَمْعِ، لِأَنَّ هَذَا الْفِعْلَ تَدْخُلُ فِيهِ أَسْمَاؤُهُ كُلُّهَا، وَإِذَا كَانَ التَّعْبِيرُ عَنْ ذَاتِهِ يَقُولُ: إِنِّي أَنَا اللَّهُ، أَحْيَانًا الْإِنْسَانَ لَا تَتَّضِحُ لَهُ الصُّورَةُ، لَوْ دَخَلْنَا إِلَى أَكْبَرِ مَكْتَبَةٍ بِالْعَالَمِ، وَرَأَيْنَا فِيهَا فَرَسًا مَلِيُونَ مُجَلَّدًا، أَوْ أَكْثَرَ وَكَانَتْ كُلُّ هَذِهِ الْكُتُبِ فِي كَفَّةٍ، وَكَتَابَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كَفَّةٍ هَذَا كَلَامَ خَالِقِ الْكُونِ، دَخَلَ مُعْنَى بَرِيطَانِي فِي إِيطَالِيَا إِلَى مَكْتَبَةٍ وَهُوَ مُعْنَى شَهِيرٍ جَدًّا وَتُبَاعَ أَشْرِطَتُهُ بِمَنَاتِ الْمَلَائِيْنَ، وَرَأَى فِي هَذِهِ الْمَكْتَبَةِ الْقُرْآنَ مُتَرَجِّمًا، فَسَأَلَ صَاحِبَ الْمَكْتَبَةِ مِنْ مُؤَلِّفِ هَذَا الْكِتَابِ ظَنَ فَاأَشَارَ صَاحِبُ الْمَكْتَبَةِ إِلَى السَّمَاءِ فَسَجَرَ هَذَا الْمُعْنَى أَشَدَّ السُّحْرِيَّةَ وَاشْتَرَى الْكِتَابَ لِيَنْتَفِدَهُ وَيُدْحِضَ هَذَا الْإِدْعَاءَ فَاَمَنَّ بِاللَّهِ تَعَالَى ! وَتَابَ تَوْبَةً نَصُوحَةً وَكُلُّ دَخْلِهِ مِنْ الْأَغَانِي تَصَدَّقَ بِهِ، وَكَانَ يَشْتَرِي تَسْجِيلَاتِهِ وَأَسْطُوَانَاتِهِ وَيُتْلِفُهَا لِأَنَّ لَا يَرْتَكِبُ مَعْصِيَةً، وَهُوَ الْآنَ مِنْ أَكْبَرِ الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ اسْمُهُ يُوسُفُ إِسْلَامًا، لِذَلِكَ فَضَّلُ كَلَامَ اللَّهِ عَلَى فَضْلِ كَلَامِ خَلْقِهِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَارْتَنَ بَيْنَ خَالِقِ الْكُونِ وَبَيْنَ إِنْسَانٍ ! بَيْنَ عِلْمٍ مُطْلَقٍ وَبَيْنَ جَهْلٍ، وَحِكْمَةٍ وَغَبَاوَةٍ ! الْمَسَافَةُ الَّتِي بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ هِيَ نَفْسُهَا بَيْنَ كَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ خَلْقِهِ، فَإِذَا قَرَأَ الْإِنْسَانُ الْقُرْآنَ فَهَذَا كَلَامُ الْوَاحِدِ الدِّيَانِ، قَالَ تَعَالَى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا(23)فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آيْمًا أَوْ كُفُورًا(24)﴾

[سورة الإنسان]

فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَضَى أَنْ تَكُونَ ذَا دَخْلٍ مَحْدُودٍ فَهَذَا قِضَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْتَسِفُ لَكَ الْحِكْمَةُ فَتَذُوبُ كَالشَّمْعَةِ مَحَبَّةً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَضَى أَنْ تَكُونَ أَبًا لِبَنَاتٍ فَقَطْ، فَهَذِهِ هِيَ حِكْمَتُهُ، وَقَضَى أَنْ تَكُونَ أَبًا لِلْأَوْلَادِ، وَقَضَى أَنْ تَكُونَ عَقِيمًا أَوْ صَحِيحًا أَوْ مَرِيضًا فَهَذِهِ مَشِيئَةُ اللَّهِ وَعِلَامَةُ إِيمَانِكَ بِاللَّهِ أَنْ تَحْتَرَّمَ مَشِيئَتَهُ وَأَنْ تَرْضَى بِقَضَائِهِ وَقَدْرَهُ وَلَكِنْ هَذَا مَتَى ؟! بَعْدَ اسْتِنْفَازِ الْجُهْدِ، فَإِذَا كُنْتَ كَسُولًا وَلَا أُدْرَسَ تَمَّ أَقُولُ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ وَالْوَكِيلُ، هَذَا كَلَامٌ بَاطِلٌ، الْأَصْلُ أَنْ أَقُولَ هَذَا بَعْدَ الْاجْتِهَادِ وَبَدَلُ كُلِّ مَا فِي الْوُسْعِ لِيَتَحَسَّنَ مَعِيشَتِي وَنَيْلُ الدَّرَجَاتِ الْعُلْيَا فَإِذَا انْتَهَى بِكَ السَّعْيُ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ فَهَذَا قِضَاءُ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدْرَهُ. إِذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آيْمًا أَوْ كُفُورًا(24)﴾

[سورة الإنسان]

لو أنّ أحدكم ذهب إلى طبيب أسنان وقال له: أنت لك مُشكلة في القلب والبنج لا يُناسبك، ولا بدّ من أن تُقلع الضرس من دون بُنج، وافْتَنَعْتَ أنت، فَمِنْ أجل قناعتِكَ بالسَّبب تتَحَمَّل الألم وتصَبِر، وهذا الصَبْر لا يَحْتَاج إلى جُهدٍ إطلاقاً، ولكن متى يكون الأجر على الصَّبْر عالياً؟ إذا لم تكن الحِكْمَة غير واضحة لك! يا ترى ألا يستحق الله عز وجل أن تُسَلِّم له الأمر ولو لم تتَّضح لك الحِكْمَة؟ فأنت مع طبيب تُسَلِّم الأمر فكيف مع الخالق، فالله عز وجل يَمْتَحِنُ عُبوديَّتكَ له، ويَبْعَثُ لك مشكلة غير معقولة، وليس معها مُبَرَّر، ولو أنّك في أعلى درجة من الاستقامة تأتي مُشكلة فلا تقل والله أنا المفروض لا تأتي مثل هذه المصائب! وأعلى امتحان عُبوديَّة أن يقول الله عز وجل لِنَبِيِّ كَرِيمٍ إِذْ بَحَّ ابْنُكَ، قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا بَتِ اِفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾

[سورة الصافات]

وكَلَّمَا كان أمر الإلهي واضح كَلَّمَا كانت العبوديَّة قليلة وكَلَّمَا كان الأمر الإلهي غير واضح كانت العبوديَّة فيه أعلى، أبُّ قال لابنه نَظَّفَ أسنانك وآخر قال لابنه أنت معك إلتها ب أمعاء ما عليك إلا أن تأكل الشاي واللبن فقط كُلُّ هذا لِمَصْلَحَة الولد، أما إن كان الابن جائعاً والطعام موجود وأراد أن يأكل ثم يقول له الأب لا تأكل! فهنا تظهر طاعة الابن لأبيه لأنَّ الأمر معقول وهذا اسمه إمتحان عُبوديَّة، فالله تعالى يَمْتَحِننا إِمْتِحان عُبوديَّة، فهذا سيِّدُ الخلق وحبیب الحق في الطائف كذبوه وسخروا منه واستخفوا بدَعْوَتِهِ، وفي روايةٍ ضربه، قال عليه الصلاة والسلام: يا رب إن لم يكن بك عليّ غَضَبٌ فلا أبالي ولك الغنبة حتى ترضى ولكن عافيتك أوسع لي، وامرأة في معركة أُحُد والله مليون رجل لا يُساوي قلامة ظفرها، رأت زَوْجَهَا قتيلاً، فقالت: ما فعل رسول الله، ورأت ابناً قتيلاً فقالت: ما فعل رسول الله، ورأت أخاها قتيلاً، فقالت: ما فعل رسول الله، ورأت أباه قتيلاً، إلى أن رأتَهُ فقالت: يا رسول الله، كُلُّ مصيبةٍ بعدك تهون! فنحن لِضَعْفِ إيماننا لا نُمْتَحِنُ هذه الامتحانات، هناك صحابي فَقَدَ بَصَرَهُ، فقال: أدعو الله أن يردَّ لك بصرَكَ، فقال: والله إنني أستحي من الله، هو اختار لي هذا وأنا أرفضه! فالإيمان له مُسْتَوِيَات، لما قال لِنَبِيِّهِ إِذْ بَحَّ ابْنُكَ، هل دُبِحَ الابن؟ لا، الله تعالى رحيم إلا أَنَّهُ اِمْتَحَنَكَ، إذاً هناك امتحانات عُبوديَّة، والواضحة لا تحتاج إلى صَبْر، كحال الذي يؤلِّمُه ضِرْسُه ولكن متى تحتاج إلى الصَبْر، إذا لم يكن الأمر واضحاً، تجد شاباً مُسْتَقِيماً فَقَدَ عمله فجأة! وما أكل مال الحرام، فأصْبَحَ يَدِينِ أَوَّلَ الشَّهْرِ وثانيه وثالثه؛ هذا امتحان عُبوديَّة فإذا قال: يارب لك الحمد، مَنْ أَحَبَّنَا أَحَبَّنَاهُ، ومن طلب منَّا أَعْطَيْنَاهُ، ومن اِكْتَفَى عَمَّا لَنَا كُنَّا لَهُ وما لنا تأتي الدنيا وهي راغمة، ما ترك عبد شيئاً لله إلا عَوَّضَهُ اللهُ تعالى خيراً منه، في دينه ودُنْيَاهُ، ولا يوجد واحدٌ مِنَّا ليس له قائمة مُزَعَّجات بِحَيَاتِهِ ونقائص ومُشْكِلات، فإذا قلت أنت: يا رب أنا راضٍ حَدَّثونا عن رجل معه ورم خبيث بأمعائه، فَدَخَلَ إلى

المُسْتَشْفَى، فأحد إخواننا الأطباء قال: ما دخل عليه إنسان إلا بادَرَهُ بهذه الكلمة ؛ إشهدُ أنني راضٍ عن الله ! وكانت به آلام لا يعلمها إلا الله تعالى وكان يُعْمِضُ عَيْنَاه وَيَسْتَعْفِرُ، وكان يُكْتَبِرُ الحَمْدَ، ثلاثة أيام تُوفِّي، ولِحِكْمَةٍ بالغة بالغة جاء بعده مريض مُصاب بِنَفْسِ المرض، ما تَرَكَ نَبِيًّا ما سَبَّهُ فذاك المؤمن يَحْمَدُ وذاك يَشْتُمُ ! قال تعالى:

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ(127)﴾

[سورة النحل]

استَعِنَ بالله على الصبر، وفي آية ثانية:

﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ(7)﴾

[سورة المدثر]

هناك شَخْصٌ يَنْقُهرُ فَيَصْبِرُ، فهذا ليس لله، ولكنَّهُ مُقْهَرٌ، أما المؤمن وهو في أعلى درجات القوَّة يصبر لله، فاصْبِرْ وصابِرْ، وكان سيِّدنا عمر إذا أصابته مُصِيبَةٌ قال: الحمد لله ثلاثاً: الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله أنني ألهمت الصبر عليها. قال تعالى:

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا(24)﴾

[سورة الإنسان]

فلا شيء يقع لك إلا والله تعالى هو الذي سمح فيه، والله تعالى حكيم وعادل، وقَسِرَ كُلُّ أفعاله بِالرَّحْمَةِ والعَدْلِ واللُّطْفِ، فما دام الشيء وَقَعَ فهذا قرار ربِّكَ فاصْبِرْ والصَّبْرُ مُرِيحٌ، قال تعالى:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

[سورة الزمر]

كأنَّ لك شريك مَفْتوحٌ، فهذه الصَّحَابِيَّةُ أُمُّ سَلْمَةَ تُوفِّي زوجها ومن أَلَمَعَ الصَّحَابَةَ والنبي عَلَّمَنَا أن إذا أصابتنا أن نقول: اللهم اخْلُفني خيراً منها فإذا بالنبي صلى الله عليه وسلّم هو الذي خَطَبَهَا. فإذا صَبَرْتَ ورضيت بقضاء الله فالله تعالى يُجِبُّكَ وَيُعَوِّضُكَ أحسن منه.